الملامح الأساسية للغزل الصوفي وجمالياته الفنية في ترجمان الأشواق لابن عربي

الدكتور: أمير مقدم متقى
أستاذ مشارك: قسم اللغة العربية و آدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة فردوسي مشهد – مشهد- إيران
والأستاذ مساعد: الدكتور أحمد برويز زاده
قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الشهيد مدني بأذربيجان تبريز (إيران)

ملخـــص:

إنّ ابن عربي في ديوان ترجمان الأشواق كان شاعرا، ثم ناقداً، نظم قصائده، ثم حدث له من الظروف ما حمله علي تفسيرها، وقد رجح أنه- في بعض قصائده- لم يقف في الحالتين موقفاً واحداً، لذلك وفق في بعض المواطن واعتسف في الأخرى.

معنى الأبيات الغزلية في ترجمان الأشواق، الحب الالهي ونرى بعض القصائد أكثر انسياقاً مع التأويل الصوفي منها مع الغزل المباشر، كما أن فئة من القصائد يكاد يتوازن فيها الاتجاهان موازنة عادلة.

هذا و أن أكثر ما يميز في شعره أن لغته الغزلية في إطار الشعر الصوفي لغة صعبة وثقيلة حيث وظف الصوفية عبر المصطلاحات الفلسفية الشائعة ولكنه يتمكن من أن يجسد التصوير الدقيق والجميل فيه، كما نرى بأنه يقوم بتصريح لفظ المرأة في غزلياته ويؤكد على خصوصية الحوار الصوفي الفنية والجمالية.

تهدف هذه الدراسة أن تقف على أبعاد توظيف الغزل الصوفي و تبيين ملامحها الأساسية عند ابن عربي في ترجمان الأشواق معتمدة في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الرئيسية: ابن عربي، ترجمان الأشواق، الغزل الصوفي، الملامح الأساسية، التحليل.

Résumé :

« TardjomanAshvaghe » d'Ibn Arabidans le recueil « TardjomanAshvaghe » est à la fois poète et critique, il trace les odes mais les conditions l'obligent parfois à interpréter ses propres poèmes et il préfère ne pas prendre des positions uniques dans ses poèmes, car ses interprétations ont tantôt des partisans et tantôt des détracteurs.

Le sens des vers d'Ibn Arabi dans le « TardjomanAshvaghe » est l'amour divin et certains de ses poèmes ont plutôt de la relation directe avec l'interprétation soufie qu'avec les gazelles.

En dehors de cela, le langage de ces gazelles, dans le cadre des poèmes soufies, est un langage extrêmement complexe. Car, il les exprime à l'aide des concepts philosophiques d'autant qu'il précise le terme « femme » et il insiste également sur le dialogue soufi.

Cette recherche descriptive et analytique, tente de faire une étude de ce genre de sonnet et de présenter ses particularités fondamentales et ses beautés artistiques dans le « Tardjoman A shvaghe » d'Ibn Arabi

Mots clés : Ibn Arabi, TardjomanAshvaghe, gazelle soufie, particularités artistiques, analyse.

المقدمة:

كان الشعر الصوفي كثيرا وغزيرا غزارة النثر الصوفي، وشعراء الصوفية كثيرون في كل عصر، ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا واعتمدوا علي الارتجال والبديهة وأحسنوا، وأتوا في شعرهم بغرر المعاني، وروائع الخيال، وبدائع الصور، وجميل التشبيهات، ولطيف المجازات. ونلاحظ أن الشعر الصوفي كان من جانب آخر تحولا للشعر الديني الإسلامي والغزل العذري المتصوف العائم في مسارح الجمال الروحي.

يعد ابن عربي من الشخصيات التي أثارت الكثير من النقاش حولها، فانقسم بين موالي متشدد له وعدو لدود يناصبه أشدّ العداء ويحكم عليه بالكفر والخروج عن ملة الإسلام.

وحينما تصفحت كتب التراجم لاحظت معالم مثل هذه المناكفات في شذرات الذهب حيث يقول المؤلف في ترجمته لابن عربي:"وقع له في بعض تضاعيف تلك الكتب كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها، وكانت سببا لإعراض كثيرين لم يحسنوا الظنّ به، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحقّقين، والعلماء العاملين، والأئمة الوارثين: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخر وأهل الطريق غيرة عليها، حتّى لا يدّعيها الكذّابون، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد، غير مبالين بذلك، لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها.[1]

إن موقف الباحثين من ابن عربي يمكن وصفه بأنه كان متأزماً، إذ يرى بعضهم أعاد عبادة أحجار ووثنية الجاهلية وعبادة الحيوانات التي كانت آلهة الفراعنة واليهود.

وقد يكون سبب هذه الموقف العدائي مقولة ابن عربي مذ أن يرى بأن ربه يتجلي أعظم تجل في صورة أنثي ينتبها ذكر.

في الحقيقة إن ترجمان الأشواق لم يكن عبارة عن المجموعة شعرية خاطفة مثل كثير من مجموعات الشعر الصغيرة، بل هو أثر ارتكز عليه أعداء ابن عربي وأيضاً التصوف، ليبنوا عليه التهم التي تجعل من المتصوفة، وابن عربي قطب من أقطابهم ومنظر

رؤيتهم وأفكارهم، ويقال إنها اتخذت المرأة إلهاً من دون الله، ومثل هذه التهمة تكفي بتكفير وإخراجه من الملة وجعله دمه مهدوراً.

نتمكن بالقول أن النص الشعري ترجمان الأشواق يدور في فلك التغزل بفتاة محددة الهوية والشخصية والخصائص، ويربط الدارسون بين الغزل العذري والتصوف بحيث يبدو الغزل العذري وكأنه إرهاص للغزل الصوفي.

وقد هدف هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات التالية:

الأول: ما هي أهم المفاهيم الغزلية التي يتبناها ابن عربي؟

الثاني: لماذا وظف ابن عربي الغزل الصوفي كرمز للعلاقة مع المطلق في غزلياته لتعبير الحب الإلهي؟

الثالث: ما الأثر الذي تركه ابن عربي في الغزل الصوفي وما طبيعة وحدة الوجود في غزلياته؟

هذه الدراسة اعتمدت في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي ويتناول الباحثون الغزل الصوفي من خلال شعره.

نبذة عن حياة ابن عربي:

يُعدّ ابن عربي من أبرز شخصيات التصوف، فهو سلطان العارفين والشيخ الأكبر وهذان اللقبان يشيران إلى مكانة ابن عربي وأهميتها في مجال التصوف ورجاله.[2] لُقّب ابن عربي بـ"محيي الدين" باعتبار مصنّفاته إذ بلغت نحو أربعمائة كتاب، ويعرف بالأندلس باسم ابن سراقة.[3]

ولد ابن عربي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية (560هـ) في مدينة مرسية بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية.[4]

نشأ في أسرة ثقافية نبيلة زاهدة و في هذا الجو الثقافي- الزهدي- تربى ونشأ ابن عربي ولما بلغ من العمر ثماني سنوات انتقل إلى إشبيلية، وفيها تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمان البجائي.

ثم سافر إلى بلاد مختلفة كتونس و العراق و مدن أخرى إلى أن حلّ بمصر. [5]

وهناك التقى مع فريق من الصوفية فحاكوا حوله وحول أصحابه لولا نفوذ أحد أصدقائه لوقع في الخطر، وفر إلى مكة سنة 604هـ، ثم واصل سفره إلى قونية في نواحي آسيا الصغرى وفي سنة 608هـ دخل بغداد على أن تكون آخر رحلاته، ومن بعدها عاد على مكة، وكان في كل ذلك يكتب رسائل وكتبا تلخيصا لما يرد عليه إن يقظة أو مناما، وهكذا توالت الرحالات والأسفار فحق عليه القول: الرحالة قبل العلامة.

استقر به الحال في سوريا ابتداء من سنة 620هـ ولم يغادرها حتى توفي فيها وكان ذلك:"ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 638هـ ودفن بسفح قاسيوس.[6]

موقف العلماء عن ابن عربي:

اختلف العلماء فيه اختلافاً كثيراً، منهم من نظر إليه على أنه أحد فلاسفة الإسلام، فهو عندهم إمام أهل الكشف، خاتم الولاية كما أن محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين؟

والحق أن الفلسفة الصوفية اكتملت بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر ابن عربي، فأصبحت فلسفة صوفية ذات منهج واضح تسعي التقريب ماوراء العقل إلى العقل.

ومنهم من نظر إليه على أنه رأس الضلالة والإلحاد. وعلى رأسهم ابن تيمية، وعلى القاري الذي له رسالة يرد بها على كتاب "فصوص الحكم" لابن عربي.[7]

أهم ميزات الغزل والملامح لابن عربي في ترجمان الأشواق:

يتكون الغزل المحور الأساسي الذي يمكن الدخول منه إلى ديوان ترجمان الأشواق، فالغزل أي تعبير عن مشاعر الحب ووصف الحبيبة، هو السبب الذي دعا ابن عربي إلى نظمه وذلك تعبيراً عن حبّه لفتاة عذراء تسمى بالنظام وتلقب بـ"عين الشمس والبها" لجمالها، وهي بنت زاهر بن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني، أنها شاعرة، وأديبة فصيحة، أخلاقها كأنها روضة من الرياض، أما خطة للديوان فكان عندما نزل بمكة عام598. [8]

إن ابن عربي ذكر أسماء المواضع التي ذكر شعراء الغزل في الأدب العربي، مثل: رامة، تهامة، حاجر... وذكر أسماء تغزّل بهن الشاعر العربي، نحو: ليلي، زينب، سلمى. وجعل

العبارات بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوفَّر الدواعي علي الإصغاء إليها. ضمّن ابن عربي بعض قصائده في الترجمان أبياتاً لبعض شعراء الغزل الصريح في الأدب العربي، مثل عمر بن أبي ربيعة كما يقول في البيتين الأخيرين من قصيدة" مرضى من مريضة الأجفان":

"أيها المنكِح الثريا سُهيلاً! عَمرك الله كيف يلتقيانِ؟
هي شاميّة، إذا ما استهلّتْ وسُهيلٌ، إذا استَهلّ يماني"[9]

وصرّح أنه قلّدها في ترجمان الأشواق أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق وعبارات الغزل اللائق. لكنه لم يبلغ بعض ما تجده النفس ويثيره الأنس. وجعل ابن عربي من المرأة البتول رمزاً للحب الإلهي، فهو في أشعاره يومي إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية جرياً على طريقته في التصوف.[10]

إن الشوق والحنين والتعلق والافتتان هي الروابط الرئيسية التي شدت الصوفي إلى المرأة التي ترك غيابها عن ناظره مجالا للحلم وللخيال الخلاق، وهو الخيال الذي شكل المرأة من الحجارة المكومة في تجارب الغزل، خاصة منه العذري، يقول ابن الفارض في إحدى مقاماته العشقية:

من لي بإتلاف روحي في هوى رشإ حلو الشمائل بالأرواح ممتــزج
من مات فيـه غراما عاش مرتقيـا ما بين أهل الهوى، في أرفع الدرج
محجب، لو سرى في مثل طرتــه أغنته غرته الغرا عن الســرج
وإن ضللت بليـل من ذوائبـه أهدى لعيني الهدى صبح من البلج
وإن تنفس قـال المسك معترفـا لعارفي طيبه، من نشره أرجـى

فبهاء الكلمات وإشراق العبارات وتوهج العواطف وسخاؤها هي المقولات الكبرى في هذا المقطع الشعري الذي –وإن- استرفد من تجارب شعرية سابقة، واستنار بفضل من قبسها، فإنه استفرد بالإلحاح على ثنائية النور والظلمة، المحيلة على قضية الخير والشر الأخلاقية، فالمرأة حسب الشاعر جامعة بين قوانين الحياة ونواميسها، وما تجمع هذه المتناقضات في المرأة إلا دلالة على تعالق جميع القيم لتشكيل الجمال الأنثوي الذي هام به الشاعر الصوفي. [11]

الحقيقة أن العلاقة بين المتصوف والمرأة تبدو أكبر وأشمل وأعمق من هذا الأسئلة وغيرها، إذ أنها ابتدأت ببداية الخلق ذاته، وتشكلت محبة وشوقا وحنينا، يقول ابن عربي: "وعمر الله الموضع من آدم الذي خرجت منه حواء بالشهوة إليها إذ لا يبقى في الوجود خلاء، فلما عمره بالهواء حن إليها حنينه إلى نفسه".[12]فالحنين –إذن هو الميثاق الذي يربط الرجل بالمرأة في العرف الصوفي، ويجمع بينهما، وهو حنين ينزع إليها لا باعتبارها ذاتا، ولكن باعتبارها الجزء المفتقد من الإنسان الكامل، كما كانه الإنسان الأرضي، ولذلك فقد دخلت المرأة مع الرجل في علاقته الفاعلية والانفعال.

وكما جعل الله النكاح عبادة للسر الإلهي[13]فقد كانت المرأة باعتباره محتضنا لفعل النكاح عتبة أولى وأساسية لمعانقة هذا السر بل كثيرا ما سدت مسده، فتولت الوجوه نحوها، وتعلقت الخواطر بقبلتها، ونفخت مزامير الشوق والحنين إليها "ويمكن القول تأسيسا على ما تقدم أن المرأة بوصفها المحبوبة، رمز الأنوثة الخالقة، للرحم الكونية، وهي بوصفها كذلك علة الوجود، ومكان الوجود، والعاشق لكي يحضر فيها يجب أن يغيب عن نفسه. عن صافته، يجب أن يزيل صفاته لكي يثبت ذات حبيبته.[14] إذ أن وجوده متعلق بوجودها، وكينونته رهن لتماهيه فيها، إذ لا وجود للثنائية والتعدد في هذا المقام. يقول ابن العريف (ت.526).[15]

فالمرأة،هي أى وأجمل تجلٍّ للكمال الإلهي في الكون،وكأنيم أرادوا إنصاف المرأة،التي ظّلت مهانَة في الجاهلية،ومغيّبة طوال العصور الإسلامية المتأخرة، فَبجّلوها بجعلها أجمل تجّليات الوجود،حتى وإن لم تكن مقصودة لذاتها.وقد نجد كما سبق أن أشرنا تعدد أسماء محبوبات الشاعر في قصيدة واحدة،مثلما نجد في قول ابن عربي:

واذكرا لي هندًا ولبنى وسلمى وزينب وعنان
وانْدُباني بشعر قيس وليلي ومَيٍّ والمبتلى غيلانِ[16]

فهذه الأسماء، "أسماء محبوبات الشاعر، وهي طبعا إشارة إلى محبوبة واحدة، لأن الصوفي لا يشرك في الحب أبدا، محبوبه واحد لايريم عنه، ومعشوقه ثابت لا يتغير، ولا يتبدل بل يعبّر عنه بتعابير مختلفة، لماذا؟ لإبهار الهيام والصبابة، قد يكون ذلك، وقد

يكون سببه إظهار الحيرة، والصوفي الحق يرتاح إلى الحيرة، كما يرتاح الجاهلون إلى اليقين.[17]

إنّ الشعراء الذين تقدموا علي ابن عربي قد توزعوا في تغزلهم إلى غزل بدوي وآخر عذري؛ ففي الغزل البدوي في ترجمان الأشواق وقف ابن عربي على الأطلال يتحسّر على الأماكن التي عمرْتها المحبوبة، ثم يتغزّل بها بحسب معايير الجمال البدويّ كما يقول في قصيدته أسقفة من بنات الروم:

ما رحّلوا يوم يانوا البُرّل إلاّ وقَدْ حَملوا فِيهَا الطّوَاوِيسَا
منْ كلِّ فاتكة ِ الألحاظِ مالكةٍ تخالها فوقَ عرشِ الدُّرّ بلقيسا
إذا تمشَّتْ على صرحِ الزُّجاجِ ترى شمساً على فلكٍ في حجرِ أدريسا
تحيّي، إذا قتلتْ باللَّحظِ منطقها كأنها عندما تحيَّى بهِ عيسى[18]

أما للغزل العذريّ فهو النوع الآخر للغزل في ترجمان الأشواق، فإنّ الحبيبة قلما تظهر من خلال وصف المحبّ لها، بل تحتلّ مشاعر الأسى واللوعة التي تنتاب الشاعر جرّاء فراقة للحبيبة المساحة الأوسع، و هذه الأبيات التالية تلتبس بشعر الغزل العذري أيّما التباس حتى أنّه ليخيّل لنا أنّنا كما نقرأ في شعر جميل بثينة وقيس بن ذريح وقيس ابن الملوح الذي يعرف بالمجنون، إذ قلما تظهر الحبيبة بل تظهر مشاعر الأسى واللوعة والتي تصل حد الموت.كما يقول في قصيدته "سلام على سلمى":

سلم على سلمى ومن حلّ بالحمى وحقّ لمثلي رِقّة أن يُسلّما
وماذا عليها أن تردّ تحية علينا ولكن لا احتكام على الدُّمى
سروا وظلام الليل أرخي سدوله فقلت لها صبّا غريبا متيما
أحاطت به الأشواق صونا وأرصدتْ له راشقات النبل أيّان يمَّما
فأبدت ثناياها وأومض بارقٌ فلم أدرِ مَن شقّ الحنادس منهما
وقالت: أما يكفيه أنّي بقلبه يشاهدني في كل وقت.. أما أما ؟[19]

انعكس الجمال في الصور فوقع الهيام والعشق عند ابن عربي فأوْرت عندهم الفناء عند المشاهدة لهذا العالم لأنه يعكس له مرآة الحقيقة. إننا في قصائد الشعر الصوفي نجد تقنيات عديدة وظفها الخطاب الشعري في الغزل العذري، منها على سبيل المثال تجسيد

وصف المحبوبة وإعطاؤها الصفات الحسية والبشرية" لقد كان الشعر الصوفي معجباً بالشعراء العذريين يردد لهم أشعارهم وكأنها صادرة عنه" [20]ويستعير منها الصور والتشبيهات التي تتناغم مع عالمه الخاص في التعبير والتوصيف. فجاءت نصوص الشعر الصوفي متقاطعة مع نصوص شعر الغزل العذري في لغتها وصورتها وتجسيدها للمحبوبة، إلى الحد الذي أخرج بعض نصوص الشعر الصوفي عن سياق الحب الإلهي وأدخله في سياق الحب الإنساني الحسي. [21]

يقول في قصيدة "لا عزاءٌ ولا صبرٌ".

بان العزاءُ وبان الصبرُ إذ بانوا بانوا وهُم في سويدا القلب سكّان[22]

هذا و وقد انطلقت تجربة الحب الإلهي عند ابن عربي من مفهومه حول وحدة الوجود" فجعل من الحب ديناً، فنظر إلى مختلف الأديان على أنها دين واحد تشترك في أصل واحد هو الحب، وتدعو الإنسان إلى ذلك الحب من خلال مخاطبة شيء واحد فيه هو القلب".[23]

ويرى ابن عربي:" أن الله يتجلي لكل محب تحت حجاب المحبوبة التي لا يعشقها إلا بقدر ما يتجلي فيها من مشابهة الألوهية". [24]

وبالجملة فإنّ ابن عربي اشتغل في ديوانه على الغزل الصوفي باعتباره صورة ينفذ من خلالها إلى معرفة المطلق، فجاء ديوانه" غنيا بحركات مشاهدة المتنوعة ممتلئاً بالأبعاد الروحية السامية والمعاني الصوفية العميقة". [25]

ولكننا حينما نقرأ الشعر الصوفي أننا نقرأ شعراً يتغزل الشاعر بمحبوبته من بني الإنسان، وذلك لصعوبة التمييز بينهما وقد فطن شعراء الصوفية لذلك فقدم بعضهم بين يدي ديوانه مقدمة يشرح فيها غايته، دفعاً لسوء الظن.[26]

إن ابن عربي كان من أحرصهم على ذلك وقدم شرح ديوانه وسماه ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق عن المحبة الإلهية والتزلات الروحانية. قد نبّه في شعره إلى أن كل ما يذكره من صور حسية كالمعاني وورق الحما والسحب الباكية، إنما هو تلويح إلى تقلبات أطواره وإشارة إلى ما يجد من المحبة، وإيماء إلى أسرار وأنوار لا يعلمها إلا من

كان مثله، وقد طلب من يقرأ ديوانه أن يصرف الخاطر عن الظاهر وأن يطلب الباطن حتي يقف علي حقيقة ما يعبر عنه، وذلك في قوله:

كل ما أذكره من طلل أو ربوع أو مغان كل ما...
كل ما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهما
منه أسرارٌ وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السماء
لفؤادي أو فؤاد من له مثل ما لي من شروط العلماء
فأصرف الخاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلما[27]

يقول الدارسون لتراث ابن عربي إن مفهوم وحدة الأديان عنده يقوم على إرجاع حقيقة كل دين إلى جوهره الأساسي, وهو يعتقد أن كل الأديان في جوهرها واحدة. ويرى بأن الفروقات بين الأديان في العبادات والطاعات مجرد فروق لا تمس الجوهر إذ أن الحق واحد في أصله غير أنه في كل عصر انما يتجلى على لسان نبي من الأنبياء, بحسب لغة قومه وعلى هيئة ما يفهمون وطبقاً لما يعقلون.

نظن أن ابن عربي قد استمدّ عناصر غزله من هذا التيار التي تم ذكره، إذ ظهر لنا من خلال استقرائنا للديوان تأثره بكل واحد منها مع إدخاله بعض العناصر الأخرى. كما يرى:" فالشوق حركة روحانية إلى لقاء المحبوب، وحركة طبيعية جسمانية حسية إلى لقاء المحبوب إذا كان من شكله ذلك المحبوب، ويجد الحركة الاشتياقية تطلب استدامة حالة الوصلة. ولذلك يهيج باللقاء فإن الشوق أبرح ما يكون إذا أبصر المحب دار المحبوب، والشوق المبرح هو المظهر لما يكنه الجنان من الهوى، فإن الشوق أمر ذوقي يعرفه كل مشتاق من نفسه".[28]

الغزل الماجن(الغزل الحضري):

فهو غزل إباحي فالشاعر يعبر عن حب عابث مستهتر في معظم الأحيان كما نرى في غزليات عمر بن أبي ربيعة و الآخرين من الشعراء الذين تعاطوا بالغزل الماجن فإنهم قالوا شعرهم في كلّ فتاة سنحت لهم كما فعل ابن أبي ربيعة، وخاصة في مواسم الحجّ؛ فتعددت أسماء الفتيات اللاتي قال عمر ابن ابي ربيعة فيهنّ الشعر وهكذا تعددت أسماؤهن في شعره مثل زينب،و سكينة وعائشة.[29]

أما ابن عربي في غزله الذي وضعه في ترجمان الأشواق، فإنه لا يأتي على ذكر لأسماء من تغزّل بهنّ ماسوى أماكن محدودة يذكر فيها اسم محبوبته المنفردة أي النظام ومن قوله:

نُظمت نظام الشمل فهي نظامنا غريبة عجماء تلهي العارفا[30]

ديوان ترجمان الأشواق يعدّ شاهداً على أن تجربته الشعرية الصوفية صدرت عن حب حقيقي الفتاة هي ابنة شيخة في مكة، وتعد أكثر حسية وأشد تجسيداً لذات المحبوبة، كما في قوله:

مرضى من مريضة الأجفان عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادي من بنات الخدور بين الغواني[31]

فلذا يتفق غزل ابن عربي مع غزل الشعراء الحضريين في عدد من النقاط الأخرى، ولكنه لا يعبّر في حال من الأحوال عن حب عابث لاهٍ؛ فغزله وغزل الحضريين في كثير من المواضع عند ذكرهما لمسرح الأحداث ومشاهدها، أي أماكن المقدّسة الموجودة في الحجاز مثل أماكن ومواطن في مكّة ومدينة كقول ابن أبي ربيعة:

صاد قلبي اليوم ظبيّ مقبلٌ من عرفات في ظباء تتهادي عامدا للجمرات [32]

وقد تطرق ابن عربي إلى هذه المعاني في الأبيات ومنها:

وكم قد قتلنا بالمحصّب من منيً نفوسا أبيات لدى الجمرات[33]

وأيضاً من قوله:

ريح صبا يخبر عن عصر صِبا بحاجرٍ أو بمنىً أو بقبا.[34]

إن غزل ابن عربي في هذا الديوان قد شهد بعض ملامح الجدّة التي تعطيه هويته الخاصة على الرغم من تواصله الوثيق مع العشرين البدوي والحضري والعذري القديم.

فمن ملامح الجدة اقتباسه من التراث الإسلامي وقصص الأنبياء كذكر الأنبياء إدريس وموسى و عيسى:

ما رحّلوا يوم بانوا البزّل العيسا إلّا وقدحملوا فيها الطواويسا
من كل فاتكة الألحاظ مالكة تخالها فوق غرس الدر بلقيسا[35]

فشخصية المسيح رمز يستقطب الإنساني والإلهي ويضم النهائي واللانهائي، ويحتضن الدائر والأبدي، والشخصية من هذه الوجهة تبدو على حد تعبير ياسبيرز شفرة من شفرات العلو التي يتكلم بها الوجدان الإنساني، وعن هذا التشكيل الرمز لشخصية المسيح الذي يجمع بين متقابلين. [36]

بالإضافة إلى ذكره لشخصيات قرآنية أخرى مثل بلقيس وإبليس اللذين لو رأيا هذا الجمال الذي ابن عربي في محبوبته:

لو أنّ إبليس رأي من آدم نور مُحياها عليه ما أبي[37]

ومن الظواهر الإسلامية التي أدخلها إلى غزله تشبيهه لحركة مشاعره داخل قلبه بطواف الرسول بالكعبة، وذلك عندما يقول:

تطوف يقلبي ساعة بعد ساعة لوجى وتبريج وتلثم أركاني
كما طاف خير الرسل بالكعبة التي يقول دليل العقل فيها بنقصان[38]

إن ما تمت الإشارة إليه يلخص بعض ملامح الغزل الذي ظهرت في ديوان ترجمان الأشواق، ولكنه يطرح السؤال التالي:

هل يمكن تطبيق جميع الصفات التي يضيفيها ابن عربي علي المحبوبة في عزله علي فتاة واحدة فقط يفترض أن تكون نظام، أم توحي القصائد المتعددة بشخصيات متعددة يتغزل بها، وتختلف الواحدة منها عن الأخرى؟

فابن عربي يدعي أن نظم هذا الديوان كان للتغزل بالنظام[39]

ومن خلال استقراء أبيات الديوان. أشار إلى النظام إشارة واضحة صريحة في الأبيات التالية:

طال شوقي لطفلة ذات نثر ونظام ومنبر وبيان
من بنات الملوك من دار فرس من أجل البلاد من أصبهان
هي بنت العراق بنت إمامي وأنا ضدها سليل يماني[40]

الغزل العفيف(الغزل العذري):

أبدى ابن عربي كأسلافه من الشعراء العذريين، مشاعر اللوعة والأسى على فراق المحبوبة؛ فدموعه منهمرة، ولغزارتها استطاعت أن تكون نهرا غرق الشاعر العاشق فيه.ولذا

انطلق ابن عربي ليُطلقَ عنان الخيال لمشاهداته الغزلية اللطيفة والصورة التقليدية في الأبيات التالية:

فأرسلت دمعي أمام الركاب فقالوا مني سأل هذا النهر
وقِفا بي علي الطلوا قليلا نتباكي بل أبكِ مما دهاني
من ظلّ في عبراته غرقاً وفي نار الأسي حرقاً ولا يتنفّس[41]

الغزل العذري نفس ممزقة بين الانجذاب المادي للجسد والتعلق الروحي بالمحبوب من حيث هو إنسان بالروح قبل الجسد وما العفة فيّ شعرهن إلا نتيجة تلقائية للإيمان بالقيمّ الإسلامية.أما التمنع عند المقدره على الوصال وهو ما يسمي عادة بالأفلاطونية في الحب، تعبير عن عواطفها وأحاسيسها الإنسانية التي فطر عليهاّإلاّ أن التطبع والتخلق بأخلاق الدين والتحلي بسمات مهذبة يجعلان هذا المحب متعفف مترفع يسمو في حبه عن العلاقةالجنسيةوالحق أن أصحاب هذا الحب شطحوا شطحات صوفية في أشعارهم ونظموا ما يسمي بالحب الإلهي أو العشق الإلهي.[42]

وأمّا تخلل الألم نسيج التجربة الشعورية عند العذريين، أصبحّ الحب عندهم مرادفاً للألم وهو الأثر النفسي الحاد في نفوس فشلت في أن تحب وفشلت في أن تنسى ولم يبق لهاّإلا أن تظل في عذاب مقيم، عذاب ليس من نهاية له. وقدّتجلى القلق في أمنيات الشعراء والعلاقة بين القلق والأماني علاقة قوية، فالأمنية رغبة غير محققة، ويرتبط بمحاولة تحقيقها إحساس القلق أو أن بواعثها داخل النفس بواعث قلق وألم على وضع قائم يراد تغييره أو إصلاحه وقد فشل العذريون في حبهم وأحسوا في أوقات أنّ الإرتباط الطبيعي بمحبوباتهم لا سبيل إليه ولذلك فقد جنحوا إلى عالم الأمانيّيحققون فيه ما قد عجزوا عن تحقيقه في الواقع.كما يقول ابن عربي:

قف بالطلول الدراسات بلطع وإندب أحبتّنا بذاك البلقع
يا طللا عند الأثيل دارسا لاعبثُ فيه خرّدا أوانسا[43]

إن ابن عربي من يضرب لحبيبته موعدا في مكان محدد رامزاً بذلك إلى معنى صوفي خاص[44]كل ذلك بقالب الغزل العادي أمّا مسحة البداوة فقلما تغيب عن هذا

الغزل الصوفي، إذ يستهل ابن عربي قصيدته مثلا بالبكاء علي الأطلال، والطلول هب رمز لأثر المنازل الإلهية بقلوب العارفين والدراسة صفة إلى انتقالها من حال إلى حال.

كما أنّ ابن عربي يذكر هؤلاء الشّعراء العذرّيين مصرّحاً بأنّ له فيهم أسوة وذلك بقوله:

لنا أسوة في بشر هند وأختها وقيس وليلى ثم ميّ وغيـلان[45]

وهو يتّفق أيضًا مع الشّعراء العذريّين في تعبيره عن ألم الفراق، ولكنّه يختلف عنهم في تغنّيه بأوصاف المحبوبة الجسديّة؛ فمن المعلوم أنّ همّ العذريّين الأساسيّ كان وصف مايصيبهم من ألم الفراق، وقلّ اهتمامهم بوصف المحبوبة. أمّا عندما كانوا يصفونها، فقد كان ذلك الوصف يحتلّ مكانة ثانويّة في شعرهم، ولذلك كانت المحبوبة نادرا ما تظهر في شعر العذريين، بل كان شخص الشّاعر المتألّم المشتاق يحتلّ ساحة الواجهة الأكثر بروزًا.

من الملاحظ أنّه قلّما يوجد في غزل الشّعراء العذريّين حديث عن بهجة اللّقاء أو كلام عن فرحة الوصال أو عن تحقيق الحبّ لغاياته، مثلما يُلاحظ عند الشّعراء الجاهليّين كامرئ القيس والأعشى. فإذا حدث اللّقاء فإنّه يكون لقاء عابرا سريعا لا يروي غلّة ولا يطفئ لهيبا، بل أكثر ما يكون اللقاء مناسبة لتبادل النّجوى والشّكوى، وزادا لحزن أكبر قادم، ويأس وتشاؤم تزخر بها أشعارهم[46] .هذا مالا يلحظ في ديوان ترجمان الأشواق،إذ على الرّغم من وجود مشاعر الحزن والأسى والدموع والبكاء، مثلما نرى في قوله:

من لفتي دمتعه محرقة أسكرة خمر بذاك الفلج

من لفتي زفرته محرقة تيّمه جمال ذاك البلج

قد لعبت أيدي الهوى بقلبه فما عليه من حرج[47]

إلاّ أنّه يظلّ هناك تعبير عن فرحة اللّقاء بالمحبوبة. وتنعكس مثل هـذه الأجـواء الزّاهرة في ترجمان الأشواق في وصفه المكان الذّي تطأه المحبوبة، إذ يصير قطعة منالجنّة ماؤها وفير والخضرة تزيّنها، فهو مكان تعجّ فيه الحياة. هذا واضح في قوله:

فكلّ خراب بها عامر وكلّ سراب بها غادق

وكلّ رياض بها زاهر وكلّ شراب بها رائق[48]

وإذا حلّقنا في أجواء الغزل الصوفي، على نذرته، لوجدناه يقترب من تلك العوالم الشيقة الفيّاضة، إذ أن إلهاماتها ليست وليدة عاطفةٍ غيبية فحسب، بل إن معالم هذا

الشعر الروحي الرمزي الرقيق هي وليدة معرفة ذوقية أيضاً،حيث تألق هذا اللون من الشعر في العصرين الأموي والعباسي بعد تطور الحياة الروحية في الإسلام.

إذن فالغزل الصوفي ليس وليد عاطفة دينية مجردة، بل هو نتاج مراحل معرفية، وتجليات ذوقية بحتة، مرّ بها الشاعر عبر تطورات معينة، يلتقطها بقلمه الساحر العفوي التلقائي، بَيْد أنه لا يصورها كما يحدث في المسائل الفكرية والنظريات الفلسفية، والقواعد المنطقية وإنما يعبّر عما يختلج في نفسه، ويضطرب في قلبه، وجوانحه من خلجاتٍ ومشاعر غير مألوفة، إذ يصوغها بقالب فني مبهر نعم.. لمست فيه غلياناً يفور في أعماق ذاته، حيث يرى في داخله ما لا يُرى.. بهدوء ونقاء رتيب عجيب، ولسان حاله يموج ويهدر، وقد تطرّقابن عربي إلى الحب، فجعلوا منه النور الذي يُستضاء به، والسر الذي نتكئ عليه، والمشعل الذي يسير الصوفي على هداه.

يحتل ابن عربي منزلة عالية بين أعلام التصوف وبين شعراء عصره، ويمتاز شعره بالجودة والبلاغة وبروعة كبيرة تجذب القاري، فنراه في ديوانه ترجمان الأشواق، قد استولت عليه النشوة وموهبة البيان في كل جانب، فأنطقته بهذه الحكمة الرائعة.

لقد كان ابن عربي يفيض بالوجد والحب والشوق ويتجلي هذا الحب غب كتابته لديوان ترجمان الأشواق، وهذا الديوان قد احتل منزلة رفيعة في الحبّ ولا ريب ثروة أدبية وصوفية كبيرة، وفيه قصائد في حب الله تعالى، يعدّ ابن عربي صاحب مذهب ومؤسس مدرسة، فيلسوف ولعلّ تفكيره الفلسفي يتكيء على العقل وغزله مملوء بالصور الصور الشعرية العربية والمعاني الصوفية العميقة.

النتيجة:

إنّ ابن عربي يتكي في شعره إلى سلوك سبيل الرمز في غزلياته، ونرى بأنه علاقة وطيدة بين تجربته الصوفية وتوظيف للرمز في غزله، انطلاقا من أنّ رؤيته الصوفي للكون مغايرة لرؤية الشاعر، وأكثر ما يميز في شعره أن لغته الغزلية في إطار الشعر الصوفي لغة صعبة وثقيلة ولكنه يتمكن من أن يجسد التصوير الدقيق والجميل في غزله الصوفي، فإنّ شعر محي الدين ابن عربي مليء بروح صوفية رفيعة، وفيه إشراق الصوفيين،كما نرى بأنه يقوم بتصريح لفظ المرأة في غزلياته ويؤكد على خصوصية الحوار الصوفي الفنية والجمالية،

والتي تثبت له انتماءه الأدبي،مذ أن ترجمان الأشواق في لغته ومضامينه مألوفة ومعانيه واضحة وعار عن إبداع في التصوير والخيال في أكثر الأحيان. ولكنه ابن عربي من رواد المتصوفة الذين قدموا غزلا صوفيا لا يختلف في وجه من الوجوه عن الغزل الحسي عند العرب ولقد عرضت نوعية الغزل الذي اعتمده ابن عربي في ترجمان الأشواق، الذي أتى غزل ابن عربي في ديوانه مشوباً بالمذاهب الغزلية التي كانت سائدة، بحيث كان غزله مزيجا من الصريح والعذري، إلى جانب بعض مظاهر الجدة التي ميزت غزل ابن عربي وقد يكون شعر ابن عربي أوضح تعبيراً ومن كتاباته النثرية، ويركّز في ديوانه ترجمان الأشواق وهو التوازي ما بين العالم البشري و العالم الروحاني، اللغة فيه أداة أساسية لصياغة عالم رمزي ذي دلالات كثيفة تحيل إلى عالم آخر مفارق لها، ولكنه عالم خفيّ لا يمكن الوصل إليه إلّا من خلال أداة التأويل.

الهوامش والمراجع والمصادر :

المراجع والمصادر:

1- ابن عربي محيي الدين.(1978)، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، بيروت:دار صادر.

2-ابن عربي محيي الدين.(2005)، ديوان ترجمان الأشواق، بيروت:دار المعرفة.

3-ابن عربي محيي الدين.(2004)، رسائل ابن عربي، وضع حواشيه محمد عبدالكريم النمري، ط2، بيروت:دار الكتب العلمية.

4-ابن عربي محيي الدين.(1999)، الفتوحات المكية، تحقيق احمد شمس الدين،ج1، ط1،بيروت: دار الكتب العلمية.

5-ابن عربي محيي الدين.(1998)، لوازم الحب الإلهي، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق:دار معد والنشر والتوزيع.

6-ابن العريف.(1933)، محاسن المجالس، تحقيق آسين بلاتيوس، باريس: المكتبة الشرقية.

7-ابن العماد العكري الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد.(1986)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، بتحقيق عبدالقادر الأرناؤوط - محمود الأرناؤوط، المجلد السابع، دمشق: دار ابن كثير.

8-ابن الفارض،ديوان ابن الفارض.(2007)، تحقيق عبد الخالق محمود، ط3، القاهرة: مكتبة الآداب.

9-أحمد سعيد إسبر علي المعروف بـ أدونيس.(1992)، الصوفية والسوريالية، بيروت:دار الساقي.

10- بلاثيوس ميجل أسيين (1898)، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمة عبدالرحمن بدوي، لبنان: دارالقلم.

11- بلاثيوس أسين.(1956)، ابن عربي، حياته ومذهبه ترجمة عبدالرحمن بدوي، الجزء الأول، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

12- الحوفي، أحمد محمد.(1972)، الغزل في العصر الجاهلي، ط3، مكتبة النهضة.

13- خفاجي، محمد عبدالمنعم.(1980)، الأدب في التراث الصوفي،ط1، القاهرة: مكتبة دارغريب.
14- عاطف جودة نصر.(1978)، الرمز الشعري عند الصوفية، ط1، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.
15- عاطف جودة نصر.(1994)، شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي، بيروت:دار الأندلس.
16- عبدالمعطي، فاروق.(1993)، ابن عربي(حياته، مذهبه، زهده)، سلسلة الأعلام من الفلاسفة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
17- عدنان العوادي.(1986)، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، ط1، العراق:وزارة الثقافة والإعلام.
18- قدور، رحماني.(2005)، ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، الجزائر: دار الكتاب العربي.
19- محمد، غنيمي هلال.(1976)، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية،ط2، القاهرة: مطبعة نهضة مصر.
20- محمد مصطفى حلمي.(د.ت)، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي،القاهرة: دار القلم.

---

1 - عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، بتحقيق عبدالقادر الأرناؤوط - محمود الأرناؤوط، المجلد السابع، دمشق: دار ابن كثير. الحنبلي، 1986، 7، ص333.

2 - أسين بلاثيوس ميجل،ابن عربي، حياته ومذهبه ترجمة عبدالرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، 1956، الجزء الأول،ص8.

3 - ابن عربي محيي الدين، ديوان ترجمان الأشواق، دار المعرفة، بيروت،2005،ص11.

4 - ابن عربي محيي الدين، رسائل ابن عربي، وضع حواشيه محمد عبدالكريم النمري، دار الكتب العلمية بيروت، ط2،،2004،ص3

5 - ابن عربي محيي الدين، لوازم الحب الإلهي، تحقيق موفق فوزي الجبر، دار معد والنشر والتوزيع،دمشق، ط1،،1998،ج 1،ص838.
6 -المصدر نفسه، 1/ 242
7 - ابن عربي، 2005، ص12
8 المصدر نفسه، 2005، ص13
9 - المصدر نفسه،2005،ص109
10 المصدر نفسه،2005، ص24
11 - ابن الفارض،ديوان ابن الفارض، تحقيق عبد الخالق محمود،، مكتبة الآداب، القاهرة، ط3، 2007،ص 232.
12 - ابن عربي،1998، 1/ 124
13-ابن عربي،1998، 1/ 146
14 - أحمد سعيد إسبر علي المعروف بـ أدونيس، الصوفية والسوريالية،دار الساقي، بيروت،1992،ص 107.
15 - ابن العريف، محاسن المجالس، تحقيق آسين بلاتيوس، المكتبة الشرقية، باريس. 1933،ص97.
16 -ترجمان الأشواق،2005، ص83
17 خفاجي، محمد عبدالمنعم، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة دارغريب، القاهرة، ط1980،1، ص183.
18 -ترجمان الأشواق، 2005،ص30.
19 قدور، رحماني، ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، دار الكتاب العربي، الجزائر،2005،ص41.
20 -عدنان، العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي،وزارة الثقافة والإعلام، العراق،ط1986،1، ص246.
21 -محمد، غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1976،2،ص138.

22 -ترجمان الأشواق،2005، ص47.

23 محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم، القاهرة،د.ت، ص132.

24 -عبدالمعطي، فاروق، ابن عربي(حياته، مذهبه، زهده)، سلسلة الأعلام من الفلاسفة، دار الكتب العلمي، بيروت، ط1، 1993،ص 148.

25 - قدور، رحماني، ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق،ص95.

26 - عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت،1994،ص 113.

27 -ابن عربي،1978، ص5

28 - لوازم الحب الإلهي،1998، ص57

29 -الحوفي، أحمد محمد، الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة النهضة، ط3، 1972،ص57.

30 - ابن عربي، 2005، ص127

31 - المصدر نفسه، ص100

32 -عمر بن أبي الربيعة،1996،ص 85

33 - ابن عربي، 2005، ص185

34 - المصدر نفسه، ص132

35 المصدر نفسه، ص17

36 -جودة نصر،1978، ص456

37 - ابن عربي، 2005، ص130

38 - المصدر نفسه، ص60

39 - المصدر نفسه، ص9

40- المصدر نفسه، ص84

41 - المصدر نفسه، ص79،105،89

42 - يوسف،اليوسف،الغزل العذري دراسة في الحب المقموع، دار الحقائق، لبنان،1982، ص16

43 - ابن عربي، 2005، ص 123

44 - ابن عربي محيي الدين،1978، ص116.

45 - ابن عربي، 2005، ص63.

46 - الغزل في الشعر العربي،ص64.

47 - المصدر نفسه، ص175.

48 - المصدر نفسه، ص140.